الصابئة او المندائية

بقلم الاب الفاضل والباحث المدقق انستاس الكرملي البغدادي

(تابع لما سبق)

منتدا ٢٨ (تابع)

ومن سُنَن الصابئة : « اليهثه » هكذا هذا (وتُلفظ : يهيثه) ومعناها « كسرة خبز » وهي مشتقة من هذه بالحاء ومعناها : شقّ وكسر وفتق . وقد وصفها حضرة الفاضل السيد نقولا السيوفي وصفًا قريبًا كل التقريب من « سرّ القربان » عند النصارى . وذكر لها من تفاصيل الاستعداد وتأثيرها في النفس وتناولها بغير اهليّة واستحقاق ومحل حفظها الى غير ذلك مما لا يخرجها بشيء عن الشبَه (الاوخارستية) . ومن هذا ترى ان الفصل المذكور مُختلَق من اوله الى آخره . امّا حقيقة الامر فهي هذه : يأتي واحد (مهما كان رجلًا او امرأة من خدمة الدين او غيرهم) بقليل من طحين البرّ ويبسله من علو على يدي « الترميدا » المفتوحتين الموضوعتين الواحدة لِحَق الاخرى . فيذهب به الكاهن الى النهر او الى ماء جارٍ عذب ويغرف منهُ قليلًا ويصبُّهُ على الدقيق فيعجنهُ بدون خمير وملح ثم يخبزهُ بهيئة قرص صغيرة قطرها خمسة او ستة سنتيمترات . وبعد ان يخرجها من النار يضعها في محل خصوصي قد أُرصد لهذه الغاية . وهو عبارة عن حفرة قد حُفرت في الحائط او في شجرة . وبالاخص في نخلة على نحو شكل عش الخطاطيف بعد ان يطيّرها بالماء ويتلو عليها صلوات خصوصيّة . وعند العماد يذهب الكاهن ويأخذ منها ما يكفي للمتعبّدين . وتُخبز اليهثه يوم العماد . واذا مسّها واحد من العوام فلا يجوز بعد ذلك للكهنة منهم ان يأكلوا منها بل تُدّخر للعوام منهم لا غير

وهذه اليهثه تُعطى لكل من يتعمّد صالحًا كان او شريرًا رجلًا او امرأة . وبعد اكل اليهثه يشرب المتعبّد ماء من قنينة صغيرة من الزجاج المألوف وقد مُلئت من الماء الجاري الذي يتعمّد فيهِ الصابئ ويتعمد كل من يَجتلب كما رأيت فُوَيق هذا وينقد اجرة العماد وهي عبارة عن نصف فرنك او ما يزيد عليهِ . واليهثه لا تُفصل عن العماد . كما ان هذا لا يكون بدون تلك . وعليهِ فكل ما ذُكر في هذا الباب غير ما ذكرناهُ من التفاصيل

فلا يُعتمد عليه لان ما ذكرناهُ رأيناه بعيننا . وهو لا يشبه بشيء شيئاً النصارى بل يُشبه كل الشبه ما جاء في تاريخ الكنيسة عن الشيعة الأبيونيين (وهي من فرق الأدريين) فان اصحابها كانوا ينقطعون عن الاشغال نهار الاحد (وكذا يفعل الصابئة الى يومنا هذا) ويُمتدون ويتخذون النَّشر من الماء فقط لا من الخمر . وهكذا يفعل الصابئة كما رأيت

ومن مخترعات كتاب « البحث عن ديانة الصابئة » للمرحوم نقولا السيوفي : « الاعتراف » وقد سماهُ بلسانهم ههههلا (شُمهاثا) وقد عرَّفهُ تعريفاً ووصفهُ وصفاً بحيث لم يفرقهُ بشيء عن اعتراف النصارى . ومن الغريب ان الصابئة لا تعرف ذلك البتة ولم تسمع به بل ولا شبه لهذا السرّ عندها اما الشماثا فهي عبارة عن صلاة تُتلى على من أُصيب بمرض مهما كان وبالاخص الامراض العصبيَّة كالرعشة والصرع ونحوهما . والغاية من تلاوتها دفع المرض بالصلاة . وليس « الشماثا » غير ذلك فاين الترى من الثريَّا

وليس في كتاب المرحوم نقولا السيوفي بحثٌ عن سنَّةٍ من سُنن المندائيَّة إلَّا والوهم فيه او الخطأ يغلب الصحة او الحقيقة . وما ذلك إلَّا لان صاحبهُ قد استند على كلام جاهل من الصابئة او متجاهل محافظةً على اخفاء السرّ . على اننا لا نطلب من القارئ ان يصدّق كلامنا إلَّا من بعد ان يُقابل ما نقلهُ المرحوم بما جاءت به نصوص الصابئة فان بعض كتبهم الدينية قد طُبعت اليوم وليس من الصعب الحصول على هذه الكتب . ومن هذه الاسفار المطبوعة « السِدْرا ربّا او الكنزا » (١

هذا وتتبُّع جميع هذه السنن وذكرها في هذه النبذة فمن الامور التي تُثير الملل في القراء ولذا نعدل عن ذكرها . وكنَّا نود ان نشبع الكلام في هذا البحث ونهتك الحجاب عن سحرٍ تلك الشيعة لكن هناك اسبابٌ تحول دون الامانيّ :

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصَّان بالماء اعتصاري

---

١) وقد طبعها على الحجر لا بترسبرغ وهذا عنوانها بالافرنجية : Thesaurus seu Liber magnus, vulgo « Liber Adami » appellatus.- Descripsit et edidit H. Petermann. Lipsiæ 1867.

ومنها القلستة وعنوانها : Qolaste oder Gesänge und Lehren von der Taufe und dem Ausgang der Seele als mandäischer Text mit sämtlichen Varienten nach pariser und londoner Manuscripten. Stuttgard 1867.

(محلّ وجودهم) كان الصابئة في ايام الخلفاء الراشدين والعبّاسيّين منتشرين في بلاد سوريّة وما بين النهرين والعراق وبلاد ايران وشرقي بلاد العرب وجنوبيها . امّا اليوم فقد حُصروا في بقعة من العراق وفي بليدات منهُ فقط . واليك اسماؤها : العمارة وجَلْمة صالح (او قلمة صالح او الجَلْمة وهي بُليدة حديثة على بُعد ثلاث ساعات عن العمارة للمتجدر من البصرة) وابو خَصيب (على بعد ساعة ونصف ساعة عن البصرة للمتجدر الى خليج فارس) وشطرة المنتفق (او شطرة المُنتفِج او المنتفـك) وسوق الشيوخ والناصريّة (او المركز وهي بُليدة حديثـة على بعد ثلاث ساعات من أور الكلدانيين وهي التي تسمى اليوم المقيَّر او المكيَّر) والسَّنْجة والجزائر (وهاتان هما قريتان قريبتان من القُرنة) والقرنة والضُّوَيب (بازاء القرنة) وعَشرش والشوالش والجحشيّة وحكّام (وتلفظ حيّام) وآل حسن وقرمة بني سعيد والحمّار والجبايش (الكبايش) ونهر صالح وكل ذلك بين الناصريّة والبصرة . وقبل ١٣ سنة كان الصابئة ايضاً في مدن كثيرة من بلاد فارس منها : شُشتر وشاش ولي ودِزفول والحُوَيزة والمحمرّة وكل ذلك على نهر كارون فاضطهدهم العجم فتشتّتوا في مدن العراق وبقي منهم بقيّة في المحمرّة والحويزة فقط

وقد ذكر لي بعض شيوخ الصابئة وعلمائهـا ان من المندائيّة من قد توطّن فاس ومكناس والجزائر وطرابلس الغرب وبالخصوص انهُ يوجد منهم طائفـة عظيمة في « البيّاضيّة » . وقد بحثت كثيرًا عن اسم هذه البلدة او هـذا الصقع في الكتب التي بيدي فلم اتيسّر الى العثور على شيء من هـذا القبيل . فمن لي ان المراد بالبيّاضيّة « جبل لبنان » من باب التفسير المعنوي (وان كان في ذلك بعض تكلُّف) وقد نقّبتُ عن وجود هؤلاء الناس في لبنان ونواحيهِ فرأيت زُبَر في مقدّمـة كتابهِ « المصحف الناصري » (ص ١٤—١٦) انهُ يوجد فرقة من الصابئيّة في « المرقب » ليس بعيدًا من طرابلس وهذا نصُّ كلامهِ العربي بعد التنقيح :

« كان في ارض القدس اناس جليليون اصحاب بدعة خاصة بهم . ومنذ مائة وخمسين سنة هجروا وطنهم وتوطّنوا « المرقب » وهو ناحية من نواحي لبنان . وقد اقاموا هناك وهم موجودون الى يومنا هذا في ذلك الصقع (اي الى عهد زُبر وقد توفي هذا العلامة سنة ١٨٢٦) يحافظون على ديانتهم وينتسبون الى يوحنّا المعمدان ويزعمون انها طريقتهُ وهم ليسوا يهود ولا نصارى بل انهم يجمعون بين الديانتين . واليك بعض شواعر دينهم :

يلبس الكهنة في وقت الصلاة ترباً من جلد الحمل ويقدّسون العسل والجراد ثم يوزعون منها بعد الصلاة على الحضور. ومن هؤلاء من يأخذ شيئاً منها لبيوتهم ليُعطى لمن لم يحضر الحفلة من اقاربهم ومن معارفهم. والجميع يأخذون تلك الاشياء بكل احترام واكرام. وفي اليوم الذي يتناولونها يقضون النهار بالعبادة والقنوت والورع ولا يتكلّمون الّا قليلاً ويسمعون كلام الله. واذا تذوّقوا كان موضوع كلامهم روحانيّاً. وكهنتهم يعظون الشعب مرّة واحدةً في الشهر وذلك في كنيستهم وعن امور ديانتهم. ويستهلّون دائماً خطابهم بقول يوحنّا: « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله والله هو الكلمة ». ومن عجيب امرهم انهم يعتقدون بقول يوحنّا ولا يعتقدون بالمسيح بكونه اتى الى العالم كابن الله بل كنبيّ. وهو عندهم بعد يوحنّا في المنزلة. ولهم كنيس خاصّ بهم وليس فيه لا صورة ولا تمثال بل جرن للعماد وحفرة في الارض لا غير. ولمّا يصلون يوقدون سرجاً وشموعاً ثم يضعون العسل والجراد في بُهرة الكنيس ويدورون حولها بالشموع ثلاث مرات قائلين: « حيّ بابينا يوحنّا استجبنا يا رب وخلّصنا من جميع اعدائنا وأنر عقولنا لكي يضيء علينا نور الديانة الحقيقيّة » وحينما ينتهون من صلواتهم يناول كهنتهم العسل والجراد لجميع الحاضرين ويُرخذ للغائب شيء من ذلك ليعطاهُ في البيت. ويتيمون هذه السنّة مرّتين في الاسبوع اي نهار الخميس ونهار الاحد

« امّا لبس الكاهن في وقت اقامة الشعائر الدينيّة فهو عبارة عن « شلاح » و « قبّة » من جلد البعير وبيده عصاً. واذا وعظ الكاهن اتى بالآيات بنصّها الجليلي واما التفسير والشرح فباللسان العربيّ لان عامتهم لا تفهم لغتهم الدينيّة الّا علماؤهم وكهنتهم. ويتلو الكهنة وعظهم عن ظهر القلب الّا الآيات فانهم يقرأونها قراءة ويأخذونها عن سفر يوحنّا. واذا اخذ الكاهن بالوعظ تُوصد الابواب ويقف واحد منهم على الباب بمنزلة حارس. امّا بقيّة الجمع فيجلسون صامتين بوقار وادب كأن على رؤوسهم الطير. وهم يُعيّدون عيد القديس يوحنّا اربع مرات في السنة. وفي عيد يوم مولده يطحنون قمحاً ويخلطون به زبيباً وجوزاً وجراداً وعسلاً وغير ذلك ويملأون من هذا الخليط صحوناً ويبعث بها بعضهم الى بعض. وفي ذلك النهار لا يأكلون طعاماً آخر غير هذا الخليط. ثم انّ الكاهن يصلّي على هذا الطعام فيجعل كل واحد صحنهُ على رأسهِ وفي وسط الصحن شمعة متقدة ثم يطوفون والصحون على رؤوسهم حول الكنيس

مرتين. واذا انتهوا من ذلك اخذ الكاهن من الخليط واعطى منهُ لكل واحد من الحاضرين. وفي يوم عيد عماد يوحنا يُجدّدون عمادهم اي يذهب الجميع الى الماء فيأتيهم الكاهن وبيدهِ علمٌ وعلى رأسهِ قبّة من جلد البعير فيأخذ جرّةً ويملأها ماء ثم يرشّ على الخارج من الماء شيئاً من ماء الجرة قائلاً: « اني اجدّد عمادك باسم ابينا ومنقذنا وكما عمّد المسيح واليهود في الاردن وخلّصهم يُخلصك انت ايضاً ». وبعد ان ينتهي من عماد الجميع ينزل هو ايضاً في الماء ويغتسل. وعلى هذا الوجه تنتهي الحفلة فيرجع جميعهم الى الكنيس مصفقين ومغنين فيطعمهم الكاهن العسل والجراد. وفي يوم قطع رأس يوحنا المعمدان يندبونهُ في الكنيس قائلين: « ان مخلصنا في مثل هذا اليوم قتله هيرودس. زاد الله عذاب الاثمين عذاباً ». وفي يوم الاثنوبة التي عمّدها يوحنا حينما قتل التنين الذي خرج من بحيرة طبريّة (على زعمهم) يُطوّفون حيواناتهم كلها حول الكنيس بفرح عظيم. والمتديّنون منهم وذوو اليسار يذهبون الى الجليل لإقامة هذا العيد ويأخذون معهم الضعفاء واصحاب العاهات لكي يبرأهم قديسهم وهم يعشون حتاةً. ولمّا يصلون هناك يدخلون معبدهم وهو قديم يبعد عن جبل طابور مقدار عشر ساعات وبعد ان يفرغوا من الصلاة والسجود يوزّع الكاهن العسل والجراد طلباً لسلامة ارواحهم » اه

فنطالب من قراء المشرق ممن هم في المرقب ان يفيدونا عن وجود هذه الفرقة وهل هي باقية على اقامة تلك السنن الدينيّة بالوجه الذي ذكرناهُ. وعلى كل حال فان الصابئة الموجودين هنا لا يعتقدون بشيء من هذا كلهِ ولا يُقيمون سُنّة واحدة من هذه السنن فليتنبه القارئ

(عدد الصابئة) قد احصيتُ بنفسي عدد الصابئة بلدةً بلدةً فوجدتهم لا يزيدون على ١٨٠٠ نسمة وهم يسيرون الى الانقراض سيرًا حثيثاً حتى انهُ لا يوافينا منتصف القرن الجديد الّا وقد محوا من صفر الوجود ولم يبقَ منهم باقٍ وبانقراضهم تذهب كتبهم الدينيّة التي يحافظون عليها تحافظتهم على حياتهم وتُنسى امتهم فتغدو في خبر كان

(اللغة الصابئيّة) هذه اللغة فرع من الفروع الساميّة قائمة بذاتها. غير ان الكلام عنها يستغرق كتاباً برأسهِ او على الاقلّ مقالة طويلة ولهذا لا نذكر عنها هنا شيئاً. الّا اننا نقول ان اللفظ الذي يذكرهُ الافرنج في كتبهم قد اختلقوهُ اختلاقاً برمّتهِ وهو

غير لفظ الصابئة . وكذلك قل عن معاني بعض الالفاظ والعبارات فانهم قد وهموا فيها وما ذلك الَّا لاستنادهم على اللغة الارميَّة بفرعيها فضلُّوا سواء السبيل . وكان يجب عليهم في مثل هذه الامور ان يتلقوا المصطلحات والشروح عن اصحابها لا عن غيرهم . ولولا ضيق المقام لذكرت كثيرًا من هذه الاغلاط . وعلى كلّ فانهم معذورون لان الصابئة لا يبوحون ابدًا باسرار لغتهم ومعانيها مهما دفعت لهم من الدراهم والدنانير . ومما يتعلَّق بهذا الباب ان للصابئة لغتين : لغة فصيحة ولغة عامية . فالفصيحة هي لغتهم الدينيَّة والعاميَّة هي لغة التكلُّم . وهذه الثانية تختلف عن الاولى كل الاختلاف حتى ان كثيرين منهم لا يفهمون ابدًا اللغة الفصيحة . والى اليوم لم ينبّه على هذا الامر احدٌ . وبحجَّة اقوى : لم يكتب احد شيئًا عن اللغة العاميَّة والسلام

رتبة قديمة

لشرطونية الاسقف والمطران عند الروم الملكيين

توطئة

قد سرَّ الروم الملكيون في أواسط الشهر المنصرم بترقية كاهنين فاضلين من نخبة كهنتهم الى مقام المطرنيَّة الرفيع وقد شاركهم في فرحهم جميع كاثوليك البلدة . امَّا نحن فمع تقدمة مراسيم التهاني للحبرين الجليلين (١) فقد انتهزنا هذه الفرصة لنشر « رتبة قديمة لشرطونية الاسقف والمطران عند الروم الملكيين » لتعريف الرتب الشائقة قديمًا في كنائس الشام والمقابلة بينها وبين ما هو جارٍ في ايامنا منها

وقد نقلنا هذه الرتبة من كتاب خطّي قديم يرتقي عهدهُ الى نحو ٤٠٠ سنة نصونهُ في مكتبتنا الشرقيَّة وقد عثرنا عليهِ قبل خمس سنوات عند احد ادباء البلدة الخواجا يوسف افندي صفير فباعنا اياه . وهو عبارة عن ٢٠٨ صفحة من القطع الصغير يحتوي كلّ رتب درجات الكهنوت من الاناغنسط (القارئ) الى درجة المطرنية . وسنعود ان شاء الله في فرصة اخرى الى وصف هذا الكتاب النفيس . وغاية ما يمكننا قولهُ اليوم ان هذه الرتب قديمة جدًّا لا توافق الرُّتب الشائعة اليوم

(١) قد نشرنا في المشرق صورة احدهما السيِّد المفضال فلايانوس كفوري وقد تكرَّم علينا بها . امَّا صورة السيد اكليمنضوس مطوف فلم يمكنا الحصول عليها